سورة القصص

١ـ **سُمِّيت سورةَ القصص** ولا يعرف لها اسمُ آخر، ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ (القصص) فيها عند قوله ـتعالىـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾.

فالقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصه على شعيب ـعليهما السلامـ فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها.

فلما حكي في السورة ما قصه موسى كانت هاته السورة ذات قصص لحكاية قصص، فكان القصص متوغلاً فيها، وجاء لفظ القصص في سورة يوسف ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.

وهي مكية في قول جمهور التابعين، وفيها آية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

قيل: نزلت على النبيﷺ في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده.

وهذا لا يناكد أنها مكية؛ لأن المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبيﷺ بالمدينة كما أن المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ نزل بالمدينة.

وهي السورة التاسعة والأربعون في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء؛ فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما

هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى -عليه السلام- ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة.

وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين. ٢٠/ ٦١

٢- **اشتملت هذه السورة** على التنويهِ بشأنِ القرآن، والتعريضِ بأن بلغاءَ المشركين عاجزون عن الإتيان بسورةٍ مثلِه، وعلى تفصيل ما أُجمِلَ في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ فَفَصَّلت سورةُ القصصِ كيف كانت تربيةُ موسى في آل فرعون.

وبُيِّن فيها سببُ زوال مُلْكِ فرعونَ.

وفيها تفصيلُ مَا أُجْمِلَ في سورة النمل من قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ فَفَصَّلت سورةُ القصصِ كيف سارَ موسى وأهلُه، وأين آنس النارَ، وَوَصْفَ المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذَكَرَتْ دعوةَ موسى فرعونَ؛ فكانت هذه السورةُ أَوْعَبَ لأحوال نشأةِ موسى إلى وقت إبلاغه الدعوةَ، ثم أَجْمَلَتْ ما بعد ذلك؛ لأن تفصيلَه في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء.

والمقصودُ من التفصيل ما يتضمنه مِنْ زيادةِ المواعظِ والعبر.

وإذْ قد كان سَوْقُ تلك القصةِ إنما هو للعبرة والموعظة؛ ليعلم المشركون سُنَّةَ اللهِ في بعثة الرسل ومعاملته الأممَ المكذبةَ لرسلها، وتحدِّي المشركين بعلم النبيﷺ بذلك، وهو أميٌّ لم يقرأْ ولم يكتبْ، ولا خالط أهل الكتاب - ذَيَّلَ اللهُ ذلك بتنبيه المشركين إليه، وتحذيرَهم من سوء عاقبة الشرك، وأنذرهم إنذاراً بليغاً.

وفَنَّد قولَهم: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الخوارق كقلب العصا

حيةً، ثم انتقاضَهم في قولهم؛ إذ كذبوا موسى -أيضاً-.

وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة.

وأبطلَ معاذيرَهم، ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله.

وساقَ لهم أدلة على وحدانية الله -تعالى- وفيها كلُّها نعمٌ عليهم، وذكَّرهم بما سيحُلُّ بهم يوم الجزاء.

وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونَعْمتهم ومالهم بأن ذلك متاعُ الدنيا، وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خيرٌ وأبقى.

وأَعْقَبَهُ بضربِ المثل لهم بحال قارونَ في قوم موسى، وتخلَّص من ذلك إلى التذكيرِ بأن أمثال أولئك لا يَحْظَوْن بنعيم الآخرة، وأن العاقبةَ للمتقين.

وتخلل ذلك إيماءٌ إلى اقتراب مهاجرةِ المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أن الله مُظْهِرُهم على المشركين بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية.

وختَم الكلامَ بتسلية الرسولﷺ وتثبيته ووَعْدِه بأنه يجعل بلَدَه في قبضته، ويمكِّنَه من نواصي الضالين.

وَيَقْرُبُ عندي أن يكون المسلمون ودُّوا أن تُفَصَّل لهم قصةُ رسالةِ موسى -عليه السلام- فكان المقصودُ انتفاعَهم بما في تفاصيلها من معرفةٍ نافعة لهم؛ تنظيراً لحالهم وحال أعدائهم؛ فالمقصودُ ابتداءً هُمُ المسلمون ولذلك قال -تعالى- في أولها: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي للمؤمنين. ٢٠/٦٢-٦٣

٣- **فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون**؛ ذلك أن فعله هذا اشتمل

على مفاسد عظيمة.

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر؛ فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجباتِ فَضْلٍ سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم، وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضيةً سوءَ رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار؛ فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتزَّ منافعهم لنفسه، ويُسَخِّرَ مَنِ استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة، فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته.

فهذه الصفة هي أم المفاسد، وجماعها؛ ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها، ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعاً، وفرقهم أقساماً وجعل منهم شيعاً مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى؛ لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة؛ فيحلوا محل الآخرين.

وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض؛ فيكون بعضهم لبعض فتنة، وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب

يحب لهم الخير، ويقوِّمهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

المفسدة الثالثة : أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها، ونشأوا فيها.

والمراد بالطائفة : بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها، وتكاثروا فيها، ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة؛ فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها؛ فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله ـتعالىـ: ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعاً.

وأشار بقوله: ﴿طَائِفَةً﴾ إلى أنه استضعف فريقاً كاملاً، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جارياً على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلاً للاعتداد بهم؛ لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد؛ لأنه يقرن الفاضل بالمفضول.

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة وهي :

المفسدة الرابعة: أنه يُذَبِّح أبناءهم أي يأمر بذبحهم؛ فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي.

والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة، وقَصْدُه من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال؛ فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل إيماءً إلى أنه يستحييهن؛ ليصرن نساء؛ فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا؛ إذ ليس لهن أزواج.

وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة.

وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء؛ إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

وقد تقدم آنفاً موقع جملة: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ ﴾. ٢٠/٦٩-٧٠

٤- قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فجمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين.

فالخبران هما: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوْسَى ﴾ وقوله: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ لأنه يُشْعِر أنها ستخاف عليه.

والأمران هما: ﴿ أَرْضِعِيْهِ ﴾ و ﴿ أَلْقِيْهِ ﴾.

والنهيان: ﴿ وَلاَ تَخَافِي ﴾ و ﴿ لاَ تَحْزَنِي ﴾.

والبشارتان: ﴿ إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْن ﴾.

والخوف: توقع أمر مكروه، **والحزن:** حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب، أو فقد حبيب، أو بعده، أو نحو ذلك.

والمعنى: لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم، ولا تحزني على فراقه.

والنهي عن الخوف وعن الحزن نهي عن سببيهما، وهما توقع المكروه، والتفكر في وحشة الفراق.

وجملة: ﴿ إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكِ ﴾ في موقع العلة للنهيين؛ لأن ضمان رده إليها يقتضي أنه لا يهلك، وأنها لا تشتاق إليه بطول المغيب.

وأما قوله: ﴿ وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْن ﴾ فإدخال للمسرة عليها. ٢٠/٧٤ـ٧٥

٥ـ **وقرة العين:** كناية عن السرور وهي كناية ناشئة عن ضدها، وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن؛ فلما كني عن الحزن بسخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه، وقول الراجز:

أوه أديم عرضه وأسخن … بعينه بعد هجوع الأعين

أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية فقالوا: قرة عين، وأقر الله عينه؛ فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنى به العرب عن ذلك وهو قرة عين.

ومن لطائفه في الآية أن المسرة المعنية هي مسرة حاصلة من مرأى محاسن الطفل كما قال ـتعالى ـ: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾. ٢٠/٧٨

٦ـ ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾.

تقدم نظير قوله: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾ في سورة طه.

وقوله: ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإنما تأكيد حرف كي بمرادفه وهو لام التعليل؛ للتنصيص من أول وهلة على أنه معطوف على الفعل المثبت، لا على الفعل المنفي.

وضمير: ﴿ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ عائد إلى الناس المفهوم من المقام، أو إلى رعية فرعون، ومن الناس بنو إسرائيل.

والاستدراكُ ناشئٌ عن نصب الدليل لها على أن وعد الله حق، أي فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لا يعلمون ذلك؛ لأنهم بين مشركين وبين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم، وخلت أقوامُهم من علماء يلقنونهم معانيَ الدين؛ فأصبح إيمانهم قريباً من الكفر.

وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أموراً ذات شأن؛ ذكرى للمؤمنين، وموعظة للمشركين.

فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدَّره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ وإن الحذر لا ينجي من القدر.

وثانيه: إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علوَّ فرعونَ لم يغن عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد؛ ليكون ذلك عبرةً لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشيرٌ إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه، والأخذ بناصر المستضعفين؛ ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم،

وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه: الإشارة إلى حكمة: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ في جانب فرعون، إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل، وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أَمَّلوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ مع قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾.

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تُستأصل أمة كاملة؛ لتوَقُّعِ مُفْسِدٍ فيها؛ لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة؛ فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد؛ فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء، وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغُ أمره بتهيئه الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قَدَّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاءً أسرعَ.

ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداءً من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه؛ فتكون في ذلك عبرةٌ للمشركين الذين ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليتسموا من بوارق ظهور النبي محمد ﷺ وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأَخَرَةٍ.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين؛ فإن وجود امرأة فرعون كان سبباً في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي، فقالت امرأته: ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.

ولما في هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التي حقه أن يخطب بها في الناس حين حلوله بالعراق من قبل أخيه عبدالله بن الزبير مكتفياً بالإشارة مع التلاوة؛ فقال: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ (وأشار إلى جهة الشام يريد عبدالملك بن مروان) وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ (وأشار بيده نحو الحجاز، يعني أخاه عبدالله بن الزبير وأنصاره) وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا (وأشار إلى العراق يعني الحجاج) مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. ٢٠/٨٥ـ٨٧

٧ـ **وحين الغفلة:** هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها، وهو وقت استراحة الناس، وتفرقهم، وخلو الطريق منهم قيل: كان ذلك في وقت

القيلولة، وكان موسى مجتازاً بالمدينة وحده، قيل: ليلحق بفرعون؛ إذ كان فرعون قد مر بتلك المدينة.

والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قَتْلَهُ القبطيَّ لم يشعر به أحد؛ تمهيداً لقوله بعد: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ الآيات، ومقدمةً لذكر خروجه من أرض مصر. ٢٠/٨٨

٨ـ **ومعنى كون: ﴿ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾:** يجوز أن يكون المراد بهذين الوصفين أن موسى كان يعلم أنه من بني إسرائيل بإخبار قصة التقاطه من اليم، وأن تكون أمه قد أفضت إليه بخبرها وخبره كما تقدم؛ فنشأ موسى على عداوة القبط، وعلى إضمار المحبة لبني إسرائيل.

وأما وكْزُه القبطيَّ فلم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير؛ ولذلك لما تكررت الخصومة بين ذاك الإسرائيلي وبين قبطي آخر وأراد موسى أن يبطش بالقبطي لم يقل له القبطي: إن تريد إلا أن تنصر قومك وإنما قال: ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾.

قيل: كان القبطي من عملة مخبز فرعون فأراد أن يحمل حطباً إلى الفرن، فدعا إسرائيلياً؛ ليحمله، فأبى، فأراد أن يجبره على حمله، وأن يضعه على ظهره، فاختصما، وتضاربا ضرباً شديداً، وهو المعبر عنه بالتقاتل على طريق الاستعارة.

والاستغاثة: طلب الغوث وهو التخليص من شدة، أو العون على دفع مشقة.

وإنما يكون الطلب بالنداء فَذِكْرُ الاستغاثةِ يؤذن بأن الإسرائيلي كان مغلوباً، وأن القبطي اشتد عليه، وكان ظالماً؛ إذ لا يُجْبَرُ أحدٌ على عمل يعمله.

والوكز: الضرب باليد بجمع أصابعها كصورة عقد ثلاثة وسبعين، ويسمى

الجُمْع بضم الجيم وسكون الميم.

و﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: جملة تقال بمعنى مات لا تُغَيَّر؛ ففاعل (قضى) محذوف أبداً على معنى قضى عليه قاضٍ وهو الموت، ويجوز أن يكون عائداً إلى الله -تعالى- المفهوم من المقام؛ إذ لا يقضي بالموت غيره كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾.

وقيل: ضمير (فقضى) عائد إلى موسى، وليس هذا بالبين، فالمعنى: فوكزه موسى فمات القبطي.

وكان هذا قتلُ خطأ صادف الوكزُ مقاتلَ القبطي، ولم يرد موسى قتله.

ووقع في سفر الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني أن موسى لما رأى المصريَّ يضرب العبرانيَّ التفت هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد فقتل المصري، وطمره في الرمل.

وجملة: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾: مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل: ماذا كان من أمر موسى حين فوجئ بموت القبطي.

وحكاية ذلك للتنبيه على أن موسى لم يخطر بباله حينئذ إلا النظر في العاقبة الدينية، وقوله هو كلامه في نفسه.

والإشارة بهذا إلى الضربة الشديدة التي تسبب عليها الموت، أو إلى الموت المشاهد من ضربته، أو إلى الغضب الذي تسبب عليه موت القبطي.

والمعنى: أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ في شدة الوكز، وإنما قال موسى ذلك؛ لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية؛ فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها، وكان موسى يعلم دين آبائه لعله بما تلقاه من أمه المرأة

الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها.

وجملة: ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾: تعليل لكون شدة غضبه من عمل الشيطان؛ إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي، أو كفه عن الذي من شيعته؛ فلما كان الشيطان عدواً للإنسان وكانت له مسالك إلى النفوس استدل موسى بفعله المؤدي إلى قتل نفس أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال المأذونة.

وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس. ٢٠/٨٩ـ٩٠

٩ـ **ولا التفات في هذا إلى جواز صدور الذنب من النبي**؛ لأنه لم يكن يومئذ نبياً، ولا مسألة صدور الذنب من النبي قبل النبوة؛ لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبي أو شرع نبي هو متبعه مثل عيسى ـعليه السلامـ قبل نبوءته، لوجود شريعة التوراة، وهو من أتباعها. ٢٠/٩١

١٠ـ **ومدين**: قوم من ذرية مدين بن إبراهيم، وقد مضى الكلام عليهم عند قوله ـتعالىـ: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ في سورة الأعراف.

وأرض مدين واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد (رعمسيس) أو (منفيس) طريقاً غربية جنوبية؛ فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين، ثم بلاد النبط إلى أرض مدين، تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلاً تقريباً.

وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلاً فتلك المسافة تستدعي من المدة نحواً

من خمسة وأربعين يوماً، وكان يبيت في البرية لا محالة، وكان رجلاً جلداً، وقد ألهمه الله سواء السبيل؛ فلم يضل في سيره. ٩٨/٢٠

١١ـ **واسم المرأتين (ليا) و(صفورة)** وفي سفر الخروج: أن أباهما كاهن مدين، وسماه في ذلك السفر أول مرة رعويل، ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون، ووصفه بحمي موسى؛ فالمسمى واحد.

وقال ابن العبري في تاريخه: يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان؛ فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون.

والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب، ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود.

وللجزم بأنه شعيب الرسول جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعاً سابقاً؛ ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل: أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ومنها مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، ووجوب استحيائها، وولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهراً، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة.

وقد استوفى الكلام عليها القرطبي، وفي أدلة الشريعة الإسلامية غُنْيَةٌ عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليله في القرآن؛ ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس؛ إذ كانت تستر ما يجب ستره؛ فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه.

وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة، والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة، والعاداتُ متباينةٌ فيه، وأحوالُ الأممِ فيه مختلفةٌ وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف. ١٠١/٢٠

١٢ـ **وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها**؛ رغبة في صلاحه.

وجعل لموسى اختيار إحداهما؛ لأنه قد عرفها وكانت التي اختارها موسى (صفورة) وهي الصغرى كما جاء في رواية أبي ذر عن النبيﷺ.

وإنما اختارها دون أختها؛ لأنها التي عرف أخلاقها باستحيائها، وكلامها؛ فكان ذلك ترجيحاً لها عنده.

وكان هذا التخيير قبل انعقاد النكاح؛ فليس فيه جهل المعقود عليها. ١٠٦/٢٠

١٣ـ ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾.

التعبير عنهم باسم الإشارة هنا للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبل اسم الإشارة مثل ما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في سورة البقرة.

وعد الله لهم سبع خصال من خصال أهل الكمال: **إحداها**: أخروية، وهي: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي يضاعف لهم الثواب؛ لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل، ثم آمنوا بالقرآن؛ فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين؛ تشبيهاً للمضاعفة بتكرير الإيتاء، وإنما هو إيتاء واحد.

وفائدة هذا المجاز: إظهار العناية حتى كأن المثيب يعطي، ثم يكرر عطاءه؛ ففي: ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ تمثيلة.

وفي الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدركني فآمن بي واتبعني وصدقني فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله ـتعالى ـ وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها، فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها؛ فله أجران**».

رواه الشعبي، وقال لعطاء الخراساني: خذه بغير شيء؛ فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.

والثانية: الصبر، والصبر من أعظم خصال البر، وأجمعها للمبرات، وأعونها على الزيادة.

والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملتهم، أو صبرهم على أذى قريش، وهذا يتحقق في مثل الوفد الحبشي.

ولعلهم المراد من هذه الآية ولذلك أتبع بقوله: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾.

والخصلة الثالثة: درؤهم السيئة بالحسنة، وهي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حسن المعاشرة قال ـتعالى ـ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

فيحصل بذلك فائدة دفع مضرة المسيء عن النفس، وإسداء الخير إلى نفس أخرى، فهم لم يردوا جلافة أبي جهل بمثلها، ولكن بالإعراض مع كلمة حسنة

وهي: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وأما الإنفاق فلعلهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكة، وهو **الخصلة الرابعة**، ولا يخفى مكانها من البر.

والخصلة الخامسة: الإعراض عن اللغو، وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا الخلق من مظاهر الحكمة؛ إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولبه بما لا جدوى له، وبالأولى يتنزه عن أن يصدر منه ذلك.

والخصلة السادسة: الكلام الفصل، وهو قولهم: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وهذا من أحسن ما يجاب السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم، وأسلم من تزايد سفههم.

ولقد أنطقهم الله بحكمة جعلها مستأهلة لأن تنظم في سلك الإعجاز؛ فألهمهم تلك الكلمات، ثم شَرَّفها بأن حكيت في نسج القرآن، كما ألهم عمر قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية.

ومعنى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أن أعمالنا مستحقة لنا، كناية عن ملازمتهم إياها.

وأما قولهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فهو تتميم على حد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والمقصود من السلام: أنه سلام المتاركة المُكَنَّى بها عن الموادعة أن لا نعود لمخاطبتكم، قال الحسن: كلمة: السلام عليكم، تحية بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين.

ولعل القرآن غيَّر مقالتهم بالتقديم والتأخير؛ لتكون مشتملة على الخصوصية المناسبة للإعجاز؛ لأن تأخير الكلام الذي فيه المتاركة إلى آخر الخطاب أولى؛ ليكون فيه براعة المقطع.

وحذف القرآن قولهم: لم نأل أنفسنا رشداً؛ للاستغناء عنه بقولهم: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

السابعة: ما أفصح عنه قولهم: ﴿لاَ نَبْتَغِيْ الجَاهِلِيْنَ﴾ من أن ذلك خلقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق.

والجملة تعليل للمتاركة، أي لأنَّا لا نحب مخالطةَ أهل الجهالة بالله، وبدين الحق وأهلِ خُلُقِ الجهل الذي هو ضد الحلم؛ فاستعمل الجهل في معنييه المشترك فيها، ولعله تعريض بكنية أبي جهل الذي بَذَا عليهم بلسانه.

والظاهر أن هذه الكلمة يقولونها بين أنفسهم، ولم يجهروا بها لأبي جهل وأصحابه بقرينة قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وقوله: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وبذلك يكون القول المحكي قولين: قول وجهوه لأبي جهل وصحبه، وقول دار بين أهل الوفد. ٢٠/١٤٤ـ١٤٦

١٤ـ **فقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾**: استئناف ابتدائي لذكر قصة ضربت مثلاً لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل ابن هشام ولها مزيد تعلق بجملة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾.

ولهذه القصة اتصال بانتهاء قصة جند فرعون المنتهية عند قوله ـتعالى ـ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية.

و﴿ قَارُونَ ﴾ : اسم معرب أصله في العبرانية (قُورَح) -بضم القاف مشبعة وفتح الراء- وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت؛ فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن.

و(قورح) هذا ابن عم موسى - عليه السلام - دنيا، فهو قورح بن يصهار ابن قهات بن لاوي بن يعقوب.

وموسى هو ابن عمرم المسمى عمران في العربية ابن قاهت؛ فيكون يصاهر أخا عمرم.

وورد في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن (قورح) هذا تألب مع بعض زعماء بني إسرائيل مائتين وخمسين رجلاً منهم على موسى وهارون -عليهما السلام- حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط (لاوي) فحسدهم قورح؛ إذ كان ابن عمهم، وقال لموسى وهارون: ما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؛ إن الجماعة مقدسة، والرب معها؛ فغضب الله على قورح وأتباعه، وخسف بهم الأرض، وذهبت أموال (قورح) كلها، وكان ذلك حين كان بنو إسرائيل على أبواب (أريحا) قبل فتحها.

وذكر المفسرون أن فرعون كان جعل (قورح) رئيساً على بني إسرائيل في مصر، وأنه جمع ثروة عظيمة.

وما حكاه القرآن يبين سبب نشوء الحسد في نفسه لموسى؛ لأن موسى لما جاء بالرسالة، وخرج ببني إسرائيل زال تأمر(قارون) على قومه؛ فحقد على موسى. وقد أكثر القصاص من وصف بذخة قارون وعظمته ما ليس في القرآن، وما لهم

به من برهان، وتلقفه المفسرون حاشا ابن عطية. ٢٠/١٧٤-١٧٥

١٥- وكلمة ﴿وَيْكَأَنَّ﴾: عند الأخفش وقطرب مركبة من ثلاثة كلمات: (وَيْ) وكاف الخطاب و(أن).

فأما (وي) فهي اسم فعل بمعنى: أعجب، وأما الكاف فهي لتوجيه الخطاب؛ تنبيهاً عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة، وأما (أن) فهي (أن) المفتوحة الهمزة أخت (إن) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجب منه، فيقدر لها حرفُ جَرٍّ مُلْتَزَمٌ حذفُه لكثرة استعماله، وكان حذفه مع (أن) جائزاً فصار في هذا التركيب واجباً، وهذا الحرف هو اللام أو (من) فالتقدير: أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء.

وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث تستعمل بدون الأخرى فيقال: وي بمعنى أعجب، ويقال (ويك) بمعناه -أيضاً- قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنترُ أَقْدِمِ

ويقال: ويكأن، كما في هذه الآية، وقول سعيد بن زيد أو نبيه بن الحجاج السهمي:

ويكأن من يكن له نشب يُحْـ ... ـبَبْ ومن يفتقرْ يَعِشْ عيشَ ضرِّ

فخفف (أن) وكتبوها متصلة؛ لأنها جرت على الألسن كذلك في كثير الكلام، فلم يتحققوا أصل تركيبها.

وكان القياس أن تكتب (ويك) مفصولة عن (أن) وقد وجدوها مكتوبة مفصولة في بيت سعيد بن زيد.

وذهب الخليل، ويونس، وسيبويه، والجوهري، والزمخشري إلى أنها مركبة

من كلمتين (وي) و(كأن) التي للتشبيه.

والمعنى: التعجب من الأمر، وأنه يشبه أن يكون كذا، والتشبيه مستعمل في الظن واليقين، والمعنى: أما تعجب كأن الله يبسط الرزق

وذهب أبو عمرو بن العلاء، والكسائي، والليث، وثعلب ونسبه في الكشاف إلى الكوفيين (وأبو عمرو بصري) أنها مركبة من أربع كلمات كلمة (ويل) وكاف الخطاب وفعل (اعلم) و(أن) وأصله: ويلك اعلم أنه كذا، فحذف لام الويل وحذف فعل (اعلم) فصار (وَيْكَأنّه).

وكتابتها متصلة على هذا الوجه متعينة؛ لأنها صارت رمزا لمجموع كلماته؛ فكانت مثل النحت.

ولاختلاف هذه التقادير اختلفوا في الوقف فالجمهور يقفون على (ويكأنه) بتمامه، والبعض يقف على (وي) والبعض يقف على (ويك).

ومعنى الآية على الأقوال كلها أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته، وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله -تعالى- في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق؛ فخاطب بعضهم بعضاً بذلك وأعلنوه. ٢٠/١٨٧-١٨٨

١٦- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومعنى جَعْلها لهم أنها مُحْضَرَةٌ لأجلهم ليس لهم غيرها.

وأما من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب أفصحت عنها آيات أخرى، وأخبار نبوية؛ فإن أحكام الدين لا يقتصر في استنباطها على لوك كلمة واحدة.

وعن الفضيل بن عياض أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «ذهبت الأماني ههنا».

أي أماني الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء، وأن المؤمنين كلّهم ناجون من العقاب، وهذا قول المرجئة قال قائلهم:

كن مسلماً ومن الذنوب فلا تخف ... حاشا المهيمن أن يري تنكيدا

لو شاء أن يصليك نار جهنم ... ما كان ألهم قلبك التوحيدا

١٩٠_١٨٩/٢٠